الباب الرابع والخمسون

فى أداء حقوق الصحبة والأخوّة فى الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَق وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[(٢)].

وقال فى وصف أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّار رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[(٣)].

وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة، فمن اختار صحبة أو أخوّة فأدّبه فى أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والدعاء والتضرّع، ويسأل البركة فى الصحبة، فإنه يفتح على نفسه بذلك إمّا بابًا من أبواب الجنة، وإمّا بابًا من أبواب النار، فإن كان الله تعالى يفتح بينهما خيرًا فهو باب من أبواب الجنة. قال تعالى ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ إلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾[(٤)].

وقيل: إن أحد الأخوين فى الله تعالى يقال له: ادخل الجنة، فيسأل عن منزل أخيه، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يُعطَى أخوه مثل منزلته. فإن قيل له: لم يكن يعمل مثل عملك. فيقول: إنى كنت أعمل لى وله. فيعطى جميع ما يسأل لأخيه، ويرفع أخوه إلى درجته.

وإن فتح الله عليهما بالصحبة شرًّا، فهو باب من أبواب النار، قال الله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً﴾[(٥)].

وإن كانت الآية قد وردت فى قصة مشهورة، ولكن الله تعالى نبّه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله.

واختيار الصحبة والأخوة اتفاقًا من غير نية فى ذلك، وتثبت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد، والمنافع والمضار.

---

(١) آية رقم ٢ من سورة المائدة.

(٢) آية رقم ١٧ من سورة البلد.

(٣) آية رقم ٢٩ من سورة الفتح.

(٤) آية رقم ٦٧ من سورة الزخرف.

(٥) آية رقم ٢٨ من سورة الفرقان.

وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه فى كلام له: وهل يفسد الناس إلا الناس؟!

فالفساد بالصحبة متوقع، والصلاح متوقع، وما من هذه سبيله كيف لا يحذر فى أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى، وصدق الاختيار وسؤال البركة، والخيرة فى ذلك وتقديم صلاة الاستخارة ثم إن اختيار الصحبة والأخوة عمل، وكل عمل يحتاج إلى النية، وإلى حسن الخاتمة. وقد قال عليه الصلاة والسلام فى الخبر الطويل «سبعة يظلهم الله يوم لا ظلَّ إلا ظلّه.. فمنهم: اثنان تحابا فى الله فعاشا على ذلك وماتا عليه» إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة، ومتى أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الأول.

قيل: ما حسد الشيطان متعاونين على برٍّ حَسدَه متآخين فى الله، متحابيْن فيه؛ فإنه يجهد نفسه ويحث قَبيله على إفساد ما بينهما.

وكان الفضيل يقول: إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوّة.

والأخوة فى الله تعالى مواجهة، قال الله ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[1] ومتى أضمر أحدهما للآخر سوءًا، أو كره منه شيئًا ولم ينبهه عليه حتى يزيله أو يتسبب إلى إزالته منه فما واجهه، بل استدبره.

قال الجنيد رحمه الله - ما تواخى اثنان فى الله، واستوحش أحدهما؛ إلا لعلّة فى أحدهما.

فالمؤاخاة فى الله أصفى من الماء الزلال. وما كان لله فالله مطالِب بالصفاء فيه، وكل ما صفا دام. والأصل فى دوام صفائه عدن المخالفة، قال رسول الله ﷺ «لا تُمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تِعده وعدًا فتخلفه»[2].

قال أبو سعيد الخراز: صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بينى وبينهم خلاف، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأنى كنت معهم على نفسى.

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى إجازة، قال: أخبرنا عمر بن أحمد الصفار، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى، قال: سمعت عبد الله الدارانى يقول: سمعت أبا عمرو الدمشقى الرازى يقول: سمعت أبا عبد الله بن الجلاد يقول وقد سأله رجل: على أىّ شرط أصحب الخلق؟

---

(١) آية رقم ٤٧ من سورة الحجر.

(٢) رواه البزار.

فقال: إن لم تبرّهم فلا تؤذهم، وإن لم تَسرّهم فلا تسؤهم.

وبهذا الإسناد قال أبو عبد الله: لا تضيّع حقَّ أخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقًا لم يضيّعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه.

ومن حقوق الصحبة: أنه إذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر أخاه إلا بخير.

وقيل: كان لبعضهم زوجة، وكان يعلم منها ما يكره، فكان يقال له استخبارًا عن حالها، فيقول: لا ينبغي للرجل أن يقول فى أهله إلا خيرًا، ففارقها وطلقها، فاستخبر عن ذلك، فقال: امرأةٌ بَعدُت عنِّى، وليست منِّى فى شيء، كيف أذكرها؟

وهذا من التخلّق بأخلاق الله تعالى، إنه سبحانه يُظهر الجميل ويستر القبيح.

وإذا وجد من أحدهما ما يوجب التقاطع، فهل يُبغضه أم لا؟

اختلف القول فى ذلك: كان أبو ذر يقول: إذا انقلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحببته.

وقال غيره: لا يبغض الأخُ بعد الصحبة، ولكن يبغض عمله، قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] ولم يقل إنى برىء منكم.

وقيل: كان شاب يلازم مجالس أبى الدرداء، وكان أبو الدرداء يُميّزه على غيره، فابتُلى الشاب بكبيرة من الكبائر، وانتهى إلى أبى الدرداء ما كان منه، فقيل له: لو أبعدتَه وهجرته!!

فقال: سبحان الله، لا يُترك الصاحب بشيء كان منه.

قيل: الصداقة لُحمة كلُحمة النسب.

وقيل لحكيم مرّة: أيُما أحبُ إليك: أخوك أو صديقك؟ فقال:

إنما أحبُّ أخى إذا كان صديقى.

وهذا الخلاف فى المفارقة ظاهرًا وباطنًا، وأمَّا الملازمة باطنًا إذا وقعت المباينة ظاهرًا فتختلف باختلاف الأشخاص، ولا يطلق القول فيه إطلاقًا من غير تفصيل؛ فمن الناس من كان تغيّره رجوعًا عن الله وظهور حكم سوء السابقة، فيجب بغضه، وموافقة الحق فيه.

---

(١) آية رقم ٢١٦ من سورة الشعراء.

ومن الناس مَن كان تغيّره عَثرةً حدثـت، وفـترة وقعـت يُرجـى عـودُه، فـلا ينبغـى أن يُبغض، ولكن يُبغض عملهُ فى الحالة الحاضرة، ويُلحظ بعين الودّ منتظرًا له الفرج والعود إلى أوطان الصلح، فقد ورد أن النبى ﷺ، لمّا شتم القومُ الرجلَ الذى أتى بفاحشـة، قـال: «مَه»، وزجرهم بقوله «ولا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم»[(١)].

قال إبراهيم النخعىّ: لا تقطع أخاك ولا تَهجره عند الذنب يُذنبه؛ فإنـه يركبـه اليـوم ويتركه غدًا.

وفى الخبر: «اتقوا زلّة العالم ولا تقطعوه، وانتظروا فَيئته».

وروى أن عمر - رضى الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه، فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعض من قدم عليه، فقال: ما فعل أخى؟ فقال له: ذاك أخو الشيطان. قال له: «مَـه». قال له: إنه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمـر. فقـال: إذا أردت الخـروج فـآذنى. قـال فكتب إليه ﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غَـافِرِ الذَّنْـبِ وَقَـابِلِ التَّـوْبِ شَـدِيد الْعِقَابِ﴾[(٢)] ثم عاتبه تحت ذلك.. وعذله، فلما قرأ الكتاب بكى فقال: صـدق الله تعـالى.. ونَصح عمر، فتاب ورجع.

وروى أن رسول الله ﷺ رأى ابن عمر يلتفت يمينًا وشمالاً، فسأله، فقال:

يا رسول الله، آخيتُ رجلاً، فأنا أطلبه ولا أراه. فقال «يا عبد الله إذا آخيـت أحـدًا فاسأله عن اسمه واسم أبيـه، وعـن منزلـه، فـإن كـان مريضًـا عدتـه، وإن كـان مشـغولاً أعنته»[(٣)].

وكان يقول ابن عباس، رضى الله عنهما: ما اختلف رجل إلى مجلسى ثلاثـًا مـن غـير حاجة تكون له فعلمت ما مكافأته فى الدنيا.

وكان يقول سعيد بن العاص: لجليسى علىّ ثـلاث: إذا دنـا رحبـت بـه، وإذا حـدَّث أقبلتُ عليه، وإذا جلس أوسعتُ له. وعلامة خلوص المحبة لله تعالى: أن لا يكـون فيـها شائبة حظٍ عاجل: من رفق، أو إحسان؛ فـإنَّ مـا كـان معلـولاً يـزول بـزوال علتـه، ومـن لا يستند فى خلَّته إلى علّة يُحكم بدوام خَلَّته.

---

(١) رواه الديلمى.

(٢) آية ١ ، ٢ ، ٣ من سورة غافر.

(٣) رواه الطبرانى.

ومن شرط الحبّ فى الله تعالى إيثار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا. قال تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمِ وَلاَ يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حَاجَةً ممَّا أوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١) فقوله تعالى: ﴿لاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أوتُوا﴾ أى: لا يحسدون إخوانهم على مالهم.وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة، أحدهما: انتزاع الحسد على شىء من أمر الدين والدنيا.

والثاني: الإيثار بالمقدور. وفى الخبر عن سيد البشر ﷺ: «المرء على دين خليله، ولا خير لك فى صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه».

وكان يقول أبو معاوية الأسود: إخوانى كلهم خير منى. قيل: وكيف ذلك؟ قال: كلهم يرى لى الفضلَ عليه، ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى.

ولبعضهم نظمًا:

تذلل لمن إن تذللت له ... يرى ذاك للفضل لا للبله

وجانب صداقة من لم يزل ... على الأصدقاء يرى الفضْل له

---

(١) آية رقم ٩ من سورة الحشر.